جليل القيسي.. حياة حافلة بالإبداع مرت كومضة سريعة

إيلاف: نصرت مردان

عندما أقبلت مع الشاعرين حمزة حمامجي وإسماعيل إبراهيم اللذين كانا قد اعتادا زيارتك، نطرق بابك في مساء تشريني عام ١٩٦٩، كنت على مقاعد الدراسة الثانوية، أكتب في اليوم الواحد أكثر من قصة في دفتري الخاص. كنت في تلك السن المبكرة من حياتي مهووسا بالقصة، وكنت أتابع كل ما ينشر لك في المجلات العراقية واللبنانية.

في ذلك المساء كنت أحمل دفتري العتيد بعد ان نصحني حمزة بذلك. رحبت بنا بوجه بشوش مثل معلم طيب القلب يقابل تلاميذه. تحدثت إلينا بمودة ودفء. بعد فترة غادرت الغرفة ثم عدت إليها وأنت تحمل صينية عليها أكواب نسكافي بالحليب، ولم أكن قد تذوقته من قبل. لم يكن اسمي غريبا على مسامعك فقد كنت قد نشرت بعض المحاولات القصصية التي لم تنضج هنا وهناك. دفعت إليك دفتري باستحياء بعد إلحاح من زميلي العزيزين، وكانت معظم القصص فيها قصيرة لا تتجاوز الصفحتين أو ثلاث صفحات. انشغلت فترة بقراءة نصين أو ثلاثة أثناء الجلسة ثم رفعت عينيك محدقا وقلت بحزم: هذه ليست قصص.. وإنما خواطر وتعبيرات إنشائية!.

وقع رأيك علي كالصاعقة. كيف أكون صفرا على الشمال في القصة التي أقدسها وأكتبها بكل جوارحي، واقضي ساعات طويلة من يومي بعيدا عن العالم الخارجي متنزها في عوالم القصة والرواية لكتاب عظام. قلت لك كنوع من الاحتجاج على رأيك الحازم: لكن جميع الذين يطلعون على هذه القصص من زملائي يبدون إعجابهم بها. وهنا قلت لي كلاما كالحكمة لا يقوله إلا كاهن: ذلك لأنهم أقل موهبة وثقافة منك!.

ثم بدأت وبكل تواضع تقرأ لنا آخر ما كتبت قصة "إكس ديوس ماشينا". استمعت إليك بانبهار حقيقي، وأثارني تواضعك الجم معنا، ومعاملتك الودية والجدية لنا، وكأننا كتاب ولسنا مراهقين، نحبو في عالم الأدب. غادرنا بيتك وبدأ صديقاي يهونان من وقع رأيك علي، بعد ان لاحظا تأثري الشديد بما قلت. كانت الأيام المقبلة لي أيام نقد ذاتي قاس لما اكتب. قرأت ما كان يحويه دفتري من نصوص مئتي وثلاث ورباع. أحسست فعلا انها اقرب إلى خواطر مبثوثة هنا وهناك، يعوزها العمق والبناء القصصي المحبوك. كان رأيك القاسي حافزا كبيرا لي لكي أبدأ من جديد، بداية حقيقية تعتمد على المطالعات النوعية المعمقة، واستخلاص روح القصة الحقيقية من النصوص القصصية.

لم يكن قد مضى وقت طويل على لقائنا الأول، كتبت قصة تختلف تماما عن كل ما كتبت عنوانها "والى النهر يعود الإنسان"، بعثتها إليك مع صديق. لم يردني أية ملاحظات منك كما كنت آمل. ولأنني كنت مصمما أن استمع إلى رأيك النهائي، فقد زرتك في مساء آخر بمفردي. قابلتني بنفس الود والوجه البشوش. كنت إنسانا ودودا ورائعا ومبدعا لم يعرف الغرور والتكبر طريقه إلى سلوكك الراقي مع الآخرين. وقد ظللت تحتضن جميع من مروا على بابك من هواة الأدب في كركوك وما أكثرهم.. ليقرأوا في حضورك، وكنت تتحملهم بصبر أيوبي. لم تكن تجامل أحدا منهم على حساب الإبداع، فالقصة كانت عالمك الذي لا يجوز فيه المجاملة على الإطلاق. وجدتك تقول لي: قرأت قصتك الأخيرة كانت رائعة.. ودعني أعلن لك عن استغرابي ودهشتي لقدرتك على تطوير نفسك خلال هذه الفترة القصيرة.. لقد كتبت رأيي حولها في صفحة كاملة وأعطيتها لصديقك الذي حمل القصة لي على أمل إيصالها إليك. عندما ذكرت لك بأنني لم استلمها ابتسمت ابتسامة لها مغزى وقلت: آه.. انها الغيرة!.

خلال سنوات دراستي في تركيا، تبادلنا الرسائل. أجريت معك لقاءا وترجمت قصتك "إكس ديوس ماشينا" إلى اللغة التركية، وقد نشرت في مجلة "وارليق ــ الوجود" التي كانت تعتبر أهم المجلات الأدبية آنذاك وأطولها عمرا، وتخصص بعض صفحاتها للتعريف بالأدب الأجنبي ونصوصه، ولا تزال مستمرة في الصدور. وقد بعثت نسخة من المجلة إليك. بعد سنوات التقيت مع يشار نابي رئيس تحرير المجلة المذكورة، في مؤتمر المجمع اللغوي التركي بأنقرة عام ١٩٧٧، والذي استضاف عددا كبيرا من الوجوه الثقافية. بعد ان عرفت نفسي لرئيس التحرير، قال: آه.. تذكرتك!، ما أخبار صاحبك جليل القيسي كاتب القصة الجميلة "إكس ديوس ماشينا"؟، لقد تذكرك يشار نابي رغم عمره المتقدم وتذكر قصتك، وكنت لحظتها قطعا في صومعتك تستمع إلى "كانتات" باخ العظيم، ليظل حلمك في وهجه، وعزلتك محفوفة بالأميرات وفتيات مجدولات بالضوء.. ولا اخفي عليك وكما قلت لك في أحد لقاءاتنا بكركوك فيما بعد، بأنني شعرت باعتزاز بالغ لتذكر يشار نابي لقصتك واسمك، وكأنه يتذكرني أنا، ويثني على قصة من قصصي أنا. أثناء زيارتي لكركوك في العطلة الصيفية، كنت أزورك دائما في دائرة المنتوجات النفطية التابعة لشركة نفط الشمال. في كل زيارة، كنت أجدك في غرفة جديدة. في مرة وجدتك في غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة المدير تحت سلم يؤدي إلى طابق أعلى. كنت متذمرا ومنفعلا وأنت تقول لي: تصور ان المدير الغبي يثيره ويزعجه أن أطالع كتابا في الساعات التي تخفت فيها وتيرة العمل.. لقد خصص لي هذه الغرفة لأكون قريبا منه، ليطل بين لحظة وأخرى علي بحجج واهية ليتأكد هل أطبق تعليماته أو ليداهمني بالجرم المشهود وأنا أطالع كتابا أثناء الدوام الرسمي!، في مساء ما دعوتني مع الأخ محمد إسماعيل، الذي غادر العراق في فترة مبكرة، إلى منزلك كان مساءا بهيجا وجميلا. طلبت مني أن اغني لك أغنية تركية، فغنيت لك وسط آهات التشجيع أغنية "بو آقشام دولاشتيم بوتون ميخانه لريني استانبولون – في هذا المساء تجولت في كل حانات استانبول".

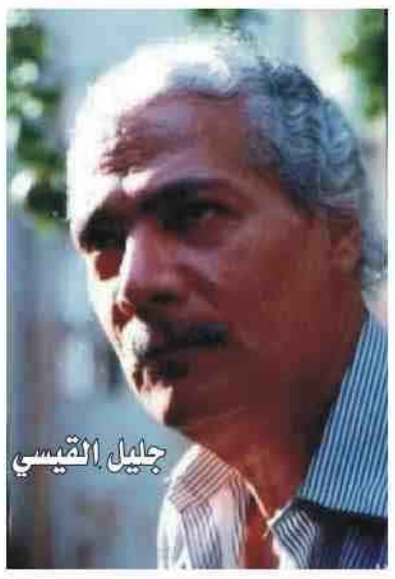

في مساء آخر كنا في شقة الأخ محمد إسماعيل مع مجموعة من أدباء كركوك، دار حديث حام عن المبدعين الكبار أمثال: غوغول، ديستوفسكي، همنغواي وجون شتاينبك. انبريت تتحدث عن شتاينبك بإعجاب مؤكدا ان أعماله كعناقيد الغضب والبشر والفئران هي أعمال خالدة. هنا لم يتحمل احد الجالسين تقييمك لشتاينبك وصرخ بانفعال: كيف تثني على كاتب عنصري، أيد حرب ابادة الشعب الفيتنامي؟!.

تكهرب الجو وترك صاحبنا الشقة محتجا. كنا جميعا إلى جانبك في ضرورة عدم الخلط بين إبداع الكاتب وفكره السياسي. فليس من معنى للإشادة دائما وفي كل الأحوال بكاتب او شاعر لمجرد انه ينتمي إلى جهة سياسية نتعاطف معها، وبالضد أن نستنزل اللعنات على كاتب رغم إبداعه، لمجرد ان ليس على نفس الخط السياسي الذي نؤيده، فالنص أولا وأخيرا هو الحكم على إبداع الكاتب والشاعر، وليس انتماءه السياسي. تجلى وفاؤك في زيارة بيتنا في غرفة خلال سنوات دراستي والسؤال عن أخباري، واستعارتك بعض الكتب من مكتبتي. وكان لرواية "البؤساء" بترجمتها الكاملة المؤلفة من ثلاثة أجزاء حظا أوفر في الاستعارة. كنت تعود إلى طلبها مني فيما بعد، لأنك كما قلت كنت تكتشف عند كل قراءة عوالم جديدة فيها. لم يخلق حبك للعزلة من اجل الإبداع ومواصلة فعل الكتابة، ميلا عندك للنفور من البشر كما قد يعتقد البعض، بل كنت ودودا وطيب القلب حتى مع العامة التي كنت تلتقي بهم إثناء تجوالك في شوارع كركوك، تبادلهم التحايا باعذب العبارات. وعلى العموم كنت متحدثا لبقا، تمتاز بالحضور الدافيء.

خلال أية جلسة. في جلسة من هذه الجلسات التي اقتصرت علينا نحن الاثنين تحدثت بمودة عن لقائك بعد سنوات في كركوك مع الشاعر سركون بولص الذي زارك في بيتك وحدثتني متذمرا كيف ان سكرة جان دمو أفسد عليك حلاوة اللقاء مع صديق عمرك. وذكرت لي انك أعطيته بعض النصوص الشعرية للشاعرين حمزة حمامجي وإسماعيل إبراهيم، اللذين رغم موهبتيهما اللافتة للنظر، والتي يعرفها عنهما معظم أدباء كركوك، لكنهما ظلا بعيدين عن أي اهتمام بهما وبنتاجاتهما، طالبا من سركون بولص العمل على نشر تلك النصوص في بعض المجلات التي تصدر خارج العراق. لم تكن تألوا جهدا للوقوف إلى جانب أصحاب المواهب الحقيقية، التي كنت تمهد أمامها الطريق، بنقدك غير المجامل للارتقاء بها إلى مستوى النضج. كنت تشعر بالمرارة من موقف بعض من لجاؤا إليك وطرقوا بابك، مغدقين عليك المديح والإطراء، وهو موقف اقل ما يقال عنه انه موقف غير ودي، يهدف للتقليل من شأنك واحاطة محمود الجنداري بهالة من التقديس وتسويقه في جلساتهم المسائية في نادي الفنانين بكركوك كمنافس لك. وكان الجنداري قد انتقل للإقامة في كركوك بهدف الحصول على ١٠ آلاف دينار وقطعة ارض وقرض مصرفي لبناء دار سكنية، وهي امتيازات خصصها النظام السابق للوافدين إلى كركوك من المحافظات الأخرى، ضمن حملة تعريب مدينة كركوك. ولم ألتق به إلا مرتين، الأولى عند وجودي في النادي مع مجموعة من الأصدقاء، حيث اقترب مني شقيقي الذي كان يشرف على إدارة النادي، قائلا ان الجنداري يود التعرف عليك، ثم أقبل أحد الأصدقاء من الذين كانوا معه على نفس المائدة مجددا رغبة الجنداري. تعرفت عليه وتحدثنا عن القصص المنشورة في العدد الخاص بالقصة العراقية لمجلة الأقلام. لم اطل الجلوس معه، تحدثنا عن الأدب التركي، وقال انه سمع بالروائي التركي يشار كمال، ولم يقرأ له شيئا، فقلت ان لدي نسخة من روايته "اينجه ممد – محمد النحيل"، وسأبعثها له من اربيل "مكان عملي".

بعد مدة زرت كركوك، والتقيت كالعادة بأصدقائي في نادي الفنانين، وجلست معهم على مائدة مزدحمة. رأيت الجنداري يجلس منزويا مع شخص آخر.. اقتربت منه محييا، فإذا به يقابلني بوجه عابس قائلا: العفو عندي خطار "ضيف"!، قلت له: لم آت للجلوس معك فمعي دائما والحمدلله "جوكة" من الأصدقاء الأحباء.. وددت فقط سؤالك فيما إذا كنت قد استلمت رواية يشار كمال التي بعثتها إليك مع صديق أم لا؟.. عمت مساءا!. في هذه اللحظة تذكرتك، وعلمت مرة أخرى كم كنت متواضعا وأصيلا مع كل محب للأدب يطرق باب صومعتك!، أقول الحق لم أجدك يوما تتحدث عن كاتب بسوء، ولم أجدك يوما تستجدي أحدا "حاشاك" أن يكتب عن عمل من أعمالك كما كان يفعل ذلك غيرك. حاولت عدة مرات أن تلتقي معا في نادي الفنانين، وكنت في كل مرة تسألني: هل هم هناك؟ وكانوا دائما هناك..كنت لا تفضل أن تراهم بل كنت تفضل البقاء في صومعتك لتتأمل لوحة "جسر كوربيفوا" لجورج بيسارو ولوحة بوشيه عن الإله "زيوس". اضطررت إلى مغادرة العراق دون ان أودعك لكنك كعادتك كنت تسأل شقيقي عن أخباري، وكم تأثرت عندما نقل لي مرة أثناء حضورك احتفالية الشاعر قحطان الهرمزي انك قلت له "لو ان نصرت لم يسافر إلى تركيا ولم يتغرب لسنوات، وواصل نشر أعماله هنا، لكان له شان آخر في القصة العراقية". كان هذا أعظم إطراء في حياتي الأدبية الخالية من الثناء والمديح، واعتبرته وساما اعتز به طوال عمري لأنه ممنوح لي من أمير وسيد القصة العربية، وهذا يكفيني.

عندما قرأت قبل فترة في "إيلاف" خبر معالجتك في أنقرة، خابرت معارفي هناك للاطمئنان عليك باعتبارك قيمة حضارية وإنسانية وإبداعية، لكنني لم أتلق منهم أي رد.

في قصة "فتاة مجدولة بالضوء" تبدو وكأنك تتحدث عن حياتك اليومية بعد التقاعد. منذ إحالتي على التقاعد قبل زهاء أربع سنوات، وأنا أعيش في بيت صغير في حارة تقع في ظاهر المدينة.. بيت فيه ثلاث غرف وصالون، وأشغل في هذا البيت الصامت صمت الدير أكبر الغرف، وأعيش عزلة صماء، أقرأ، وأكتب، وأدون أحلامي، واستمع إلى الموسيقى، وأتذكر أصدقاء أعزاء، وصديقات كنت أحبهن ذات يوم. يقول كازنتزاكي "حياتنا ومضة سريعة لكنها كافية".. لقد عشت كمثقف راق، مترفعا عن صغائر الحياة وتفاهة تفهاتها، لم تبع قلمك كالآخرين في المهرجانات الرسمية ومسابقات قصص حرب قادسية صدام، عشت في هذه الدنيا وسط الخراب والدمار في زمن النظام السابق وبعده في زمن عصيب، مرتبطا ومحبا للحياة التي يحتاج حبها إلى شجاعة كبيرة. عشت في هذه الدنيا، وخلقت فيها صومعتك وديرك. ماذا كنت ستجد في الخارج غير الثرثرة والنفاق والتقارير السرية والموت اليومي المجاني.

عشت صامتا عن صغائر الحياة، ألست أنت القائل "الصمت يحتاج إلى موهبة كبيرة"؟. عشت متطلعا نحو نيران باباكركر أقدم فنار في التاريخ لإرشاد الضائعين إلى كركوك. ظللت متطلعا إلى السلام وسكينة الروح، لذلك فلم يكن غريبا ان يستضيفك في بابل "مملكة الانعكاسات الضوئية" كبير الآلهة مردوخ، وان يقول لك الإله شازو: يا ضيفنا المحترم جليل القيسي عند الفجر سيكون أول لقاء لك مع هيراقليطس.. ولم تجد إلا أن تقول له بلهفة: هل عم السلام العالم؟.

خلاصة الشعر

صباح القس/ بغداد Sabah_ alkass@yahoo.com

وإن أشد الناس في الحشر حسرةً
لمورث مالٍ غيره وهو كاسبه
كفى سفها بالكهل أن يتبع الصبا
وأن يأتي الأمر الذي هو عائبه

هذان البيتان هما للشاعر أبو يعقوب إسحاق بن حسان المعروف بالخريمي وأصله من العجم.

وكان الخريمي منقطعا في مديحه الى محمد بن منصور بن زياد وكاتب البرامكة، واكثر مدائح ابو يعقوب في هذا الرجل. ثم رثاه بعد موته بقصيدة لم تصل بمستواها الى جودة مدائحه فقيل له: ان مدائحك في آل المنصور اجود واقوى منها في مراثيك فقال: كنا نعمل على الرجاء واليوم نعمل على الوفاء وبينهما فرق كبير.

وهذان البيتان من ابيات الحكمة المبنية على التجربة.

وهذا البيت يذكر ببيت لأبي العلاء المعري يقول:

أيا باني الدنيا لغيرك تبتني
ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

والمقصود بكلمة "الحشر" يوم الحساب او يوم تقوم الساعة اي يوم القيامة.

والتجربة التي خرج بها بيت الحكمة هذا هو ان بعض الناس يقترون على انفسهم فيحرمون ذاتهم واهلهم من كل ملذات الحياة، وكان قدر هذا الشخص ان يكون جامعا وحارسا لهذه الثروة فيورثها الى غيره لينعم الثاني بثروة لم يتعب بها لذلك ينفقها بدون تحفظ.

وعندما يموت هذا الشيخ ويأتي يوم الحساب سيكون امام السؤال الكبير لماذا حرمت نفسك وعيالك من ملذات الحياة؟.

في البيت الثاني دعوة للكهل وهو من تقدم به العمر ان يبتعد عن التصابي ومجاراة الشباب في سلوكهم، وان يلتزم بما تمليه عليه هذه المرحلة من العمر. فلكل مرحلة من العمر ما يناسبها من السلوك والقول والفعل والطعام واللباس. فاذا تجاوزها خرج عن العرف الاجتماعي وهو امر غير مقبول.

وعليه فلا يجوز لهذا الشيخ ان يفعل افعالا هو يعيبها في الآخرين، وهذا يذكرني ببيت يكثر وروده في اسئلة الامتحانات وفي درس الإنشاء.

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

تساؤلات امرأة عربية حزينة

حنين عمر

دمي.. يشتهيكَ، لمن تتركه؟..
وشعري الطويلُ كليل العراق
لمن تترَكهُ؟..
ووجهي الجميل كصبح العراق
لمن تترَكه؟..
ودفء يديَ
وطيب القصائد في شفتيّ
وضوء الخضار على مقلتيّ
لمن تتركه؟..
أيا راحلا في المساء الحزين
لمن قد تركتَ الهوى في الحنين
وأين اخَبيء هذا الجسد؟..
وكل الرجال غروبٌ كئيبٌ
وكل الرجال رمادٌ وليلٌ
وغيركَ.. لستُ احبُ احد
تمهل..تمهل
أنا متعبه ..
وهذا الطريق الذي بيننا
مسافته فوق ألف سنه
فكيف ستتركني يا "أنا"
وتترك "نفسكَ" عندي هنا؟
تمهل.. تمهل
لعلي أمزقها التذكرة
أمزق هذا الجواز وننهي الرحيل
وننهي مشاهدنا الممطرة
فتترك هذي الحقيبة عنك
وتحملني لنعود معا
إلى حيث يبدأ شيء يسمى
اذا لم يخني الهوى:
بالوطن
اذا ما رحلنا.. لمن نتركه؟.

مجلة ألواح: ماذا عن الثقافة العراقية تحت الاحتلال؟

بهرا - متابعات

صدر في العاصمة الإسبانية مدريد العدد الجديد ٢١ من مجلة "ألواح" التي تعنى بالفكر والثقافة ويشرف عليها الكاتبان العراقيان د.محسن الرملي وعبدالهادي سعدون. وجاء العدد مخصصا لحال الثقافة العراقية خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة في ظل الاحتلال، حيث ساهم في باب الرأي والدراسات كل من: وديع العبيدي عن "ملامح واتجاهات الأدب العراقي في عهد الاحتلال"، عبداللطيف الحرز عن "المستحيل في الأدب العراقي"، كريم عبد عن "تحولات في الثقافة العراقية"، علي حسين عبيد عن "مسح أولي لثقافة العراقيين"، د.فاضل السوداني عن "تحولات المثقف المتكيف"، سلام صادق عن "الإعلام بين نارين"، طاهر عبد مسلم عن "زمن القبائل الثقافية"، زيد الشهيد عن "الواقع الثقافي في محافظة السماوة"، وعبدالخالق كيطان عن "استدراكات في الثقافة العراقية بعد الزلزال"، كما كتب حسن ناظم عن بعض التغيرات الشعرية متخذا كنموذج "علي عبدالأمير بين الغياب والتواري". وفي باب الحوارات لقاء مع وزير الثقافة الأسبق مفيد الجزائري يتعرض فيه بصراحة للعديد من المشاكل والقضايا الثقافية العراقية الآن، ولقاء آخر مع الشاعر جمال جمعة. أما في أبواب النصوص والتي كتبت في هذه المرحلة فقد جاء معظمها لكتاب عراقيين من الداخل والخارج، حيث نقرأ قصائد لكل من: عبدالرزاق الربيعي، يحيى البطاط، علي محمود، سهام جبار، حسام عبدالسادة، عذاب الركابي، كولاله نوري، سعد الصالحي، رحاب حسين الصائغ، علاء شدهان، خضر حسن خلف، نجم عذوف، خالد السعدي، حسن السلمان، ثامر مهدي، حسين الهاشمي، وليد المسعودي، محمد الحافظ، محمد الجوادي وعصام القدسي. ونشرت المجلة قصصا لكل من: جلال نعيم، أيمن أزهر، علي كاظم، عبدالحليم مهودر، حسين التميمي، نبيل جميل، هلال حمود هايس، عبدالرزاق السويراوي، محمد الكاظم، ستار العبودي، شلش العراقي، نور مارتيني ومحسن الرملي، بإضافة إلى نص سيناريو سينمائي بعنوان "مقبرة" لعبدالهادي سعدون، واستطلاع قام به كاظم حسوني لآراء عدد من المثقفين العراقيين خلال عام ٢٠٠٥. وكان فنان العدد هو التشكيلي العراقي هاني مظهر الذي زينت لوحاته الغلافين والأبواب الداخلية.

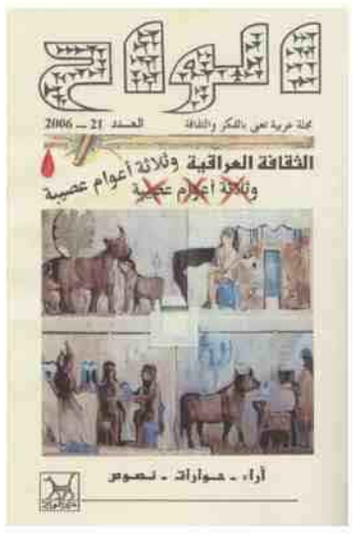

قصص قصيرة جداً

نواف خلف السنجاري - بحزاني

برج الحوت

زميلنا الذي يعمل في قسم الأرشيف من مواليد برج الحوت.. وهو مولع بقراءة برجه لدرجة الأدمان.. قرر صديقي "الماكر" والمسؤول عن تحرير الصفحة المنوّعة في "جريدتنا اليومية" التخابث والتلاعب بتفاصيل معلومات الأبراج التي يستقيها من "الإنترنت" فيضيف الى برج الحوت بعض "التوابل" مثل "مشاكل زوجية، أخبار مزعجة تصلك اليوم، أزمة مالية حادة، خسارة لفرصة عمل، مزاجك معكّر، لا تقدم على أية مبادرة، نكسة صحية، حماتك تزورك اليوم.." وغيرها من الأخبار السيئة التي تجعل زميلنا المسكين يشتعل عصبية وحسرة.. وكلما كانت ردة فعله أقوى.. كنا، صديقي وأنا، نزداد شعورا بالفرح والانتصار!.

ناقد

هذه أول تجربة له في كتابة النقد.. لقد تناول رواية لكاتبة شابة وبعد أن قرأها بصورة سطحية وسريعة كتب يقول: هذه الرواية "رشيقة" بسردها، وتتميّز بكلماتها "المكتنزة" وأفكارها "المثيرة" التي تدل على "خلفية" ثقافية لكاتبتها، وقابلية على "إحتضان" المفردات المبتكرة، والتعامل "بشاعرية" مع ردود أفعال البطل. وأكثر ما أعجبني فيها، أي الرواية، مقدمتها الرائعة، ولولا بعض "الشامات" المطبعية على وجه وغلاف الرواية كان من الممكن إعتبارها "أجمل" عمل أدبي كتب على الإطلاق!.

عيد الشجرة

سقطت مني آلاف الأوراق.. وأورقت مكانها الآلاف.. إمتصت جذوري مئات الأطنان من مياهكم الآسنة.. جلس تحت ظلي العشرات من عشاقكم.. وإستلهم مني شعراؤكم قصائدهم في كل الفصول.. آويت بين أغصاني العصافير التي تنشد لكم.
كانت حجتكم أني لا أحمل ثمراً فقطعتموني بفؤوسكم الشهوانية، وأقمتم مكاني "كشكا"لبيع السجائر!.

قناع

عاد "فلاح"، "وهو جندي مستجد".. من التدريب الليلي للوقاية من الضربة الكيمياوية في مركز تدريب المشاة.. كان منهكا وقلقا.. نزع "بسطاله" ووضعه تحت السرير بجانب قناع الوقاية.. بعد إنتصاف الليل سمع دوي إنفجارات في الجوار.. ومن شدة الخوف والأرتباك والظلام الدامس صاح أحد الجنود المذعورين بصورة لا إرادية "غاز.. غاز.. غاز..".
مدّ يده تحت السرير وحاول إرتداء القناع لكن دون جدوى.. اللعنة.. لقد لبس القناع أكثر من مئة مرة خلال الأيام الماضية، وها هو الآن مرتبك ومشوّش وقد يتعرض للهلاك بسبب تأخره سمع صوتاً هادراً وآمراً: "إلى مواضعكم بسرعة".. حمل البندقية وركض بسرعة ورمى بجسده في الموضع الشقي.. ظل هناك حتى إنبلج الفجر.. خرج من الحفرة وإنسحب الى القاعة بخطوات كسولة ممزوجة بالخذلان والذل.. حافياً يحمل بيده "البسطال" بدلا من قناع الوقاية.

عن الثقافة والمعرفة البشرية

ميدل إيست أونلاين: "الثقافة والمعرفة البشرية" كتاب جديد عن سلسلة "عالم المعرفة"، تأليف "ميشيل توماسيللو"، ترجمة "شوقي جلال". وقد أوضح الكاتب في مقدمته أن الهدف من الكتاب بيان الجذور الثقافية.. وقد ارتكن على "تفسير التطور الدينامي للمعرفة البشرية".. الجمع بين النظرة التطورية وعلم النفس الثقافي.. بيان أن جذور القدرة البشرية على توافر ثقافة الرمز والنمو النفسي".
وقد حدد الكاتب ثلاث خصائص للمعرفة البشرية، وهي الأطر التي تمكنا من فهم تطورها:
* إن لها نشأتها التاريخية، ومنها تتضح قدرة النوع الواحد على التكيف، مدعمة بوحدة الهدف وقدرة ذهنية، أي عقل يفكر في ضوء هدف منشود.
* إن هناك امكانية ظهور أشكال جديدة من آليات التعليم الثقافي والتكوين الاجتماعي.. أي التجدد بفضل التفاعل الاجتماعي مع الزمن.
* إن أفراد البشر يكتسبون المعارف والمهارات ويستخدمونها حسب الأطر والرموز، أي حسب النسق الثقافي الذي يولدون فيه.
معنى ذلك أن الطفل يولد ويتفاعل مع عوالم الطبيعة والمجتمع من خلال الثقافة الموجودة قبلهم، وبالتالي فالمعرفة المكتسبة رهن المعارف المتراكمة للأجداد. وهو سر اختلاف المجتمعات البشرية على أساس كم ونوع المعارف المتراكمة مع السياق الذي تجري فيه عملية التغذية والتلقين المعرفي. أي أن آليتي التعلم والتنشئة في مجتمعات الثقافة الجامدة هو كفالة تكرار الذات على صورة السلف.. على العكس من المجتمعات الدينامية. ومعنى هذا أن الأطفال يتشكلون معرفيا بواسطة الثقافة الطبيعية والمجتمعية أولا.. ثم تتاح لهم الفرصة فيما بعد على تجاوز تلك النشأة والمعرفة الموروثة. وفي غياب هذا الدور الفردي الانتاجي والمجتمعي للمعرفة.. تصبح الكلمة صورة مستقلة باعتبارها وعي الروح الفردي المثالي، ويدور الحديث والجدل في صورة تهويمات كلامية في المجرد والمتخيل الذهني.. وتصبح بالتالي الثقافة/ اللغة قيدا على القدرة الابداعية.
ويشير المترجم في كلمته حول فكرة الكاتب تلك، أنه بالحفاظ على اللغة/ الرمز/ الكلمة دون تغيير بدعوى الحفاظ على الهوية، كأن الحضارة صياغة كلامية وليست فكرا وقيما ونشاطا ابداعيا. وهؤلاء يعرفون أسماء الأشياء وليس جوهر الأشياء، ويحلقون في الموروث الذي لا ظل له في الواقع.. وعادة هم غير علميين. وأن المجتمعات الشفاهية على التلقين وغالبا باستخدام البرهان اللغوي.. وبالتالي يتم الزام الصغار بمتابعة الكبار وتقليدهم.
ويبني الكاتب رؤيته في هذا الكتاب بشأن الصغار وعلاقتهم بالثقافة والمعرفة، على أساس ظاهرة "الترس والسقاطة".. ويعنى عدم قابلية القدرات الناشئة على الرجوع، في مسار تاريخي لخلق المادي والفكري الذي ينمو في اطاره كل جيل جديد من أطفال البشر.
يبدأ الكاتب دراسته بقوله أنه منذ ستة ملايين سنة، في مكان ما في أفريقيا، وقع حادث تطوري.. اذ أصبحت عشيرة من القردة العليا تمشى على قدمين من جنس الانسان الجنوبى. وبدأوا في انتاج أدوات حجرية، واستخدموا الرمز في الاتصال فيما بينهم.. ثم انخرطوا في أنواع جديدة من الممارسات الاجتماعية.
هناك حقيقة أساسية هى أن البشر فقط قادرون على تجميع مواردهم المعرفية، على العكس من أي حيوان آخر.. اما عن طريق المحاكاة أو التلقين أو التعلم التعاوني.. وثلاثتهم شكلوا التعلم الثقافي.. التي هي أهم أشكال التعلم الاجتماعي، ذلك لقدرة المرء أو الفرد على فهم أفراد النوع كعناصر فاعلة مثلهم، معتمدين في ذلك على خاصيتي "الاجترار والانطواء على الذات". ويؤكد الكاتب أن التطور الثقافي التراكمي هو التفسير للكثير من المنجزات المعرفية البشرية.
لكل ما سبق اتصفت المعرفة البشرية بخصائص منفدة للأسباب قدرة المرء على التوحد وفهم أفراد النوع.. وهو ما هيأ امكانية ظهور أشكال جديدة من التعلم الثقافي مما أدى الى أشكال فنية وثقافية وتقاليد تراكمت وتعدلت.. أن يشب أطفال البشر وسط هذه التقاليد والمصنوعات الفنية التي تشكلت تاريخيا واجتماعيا، وهو ما يمكنهم من الافادة من المعارف المتراكمة.. استخدام المعرفية في رموز اللغة.. ادخال أنماط جديدة بفضل التفكير والحوار وممارسة المهارات.
يمكن أن نوجز أفكار الكاتب في جملة أرائه بالتالي:
"العالم الثقافي البشري ليس متحررا من العالم البيولوجي... وأن الثقافة نتاج للتطور لا يعنى أن لها أساسها الجيني وحده... أن جميع المؤسسات الثقافية البشرية تعتمد على أساس قدرة معرفية/ اجتماعية/ موروثة بيولوجيا، أى نتيجة أحداث ثقافية كبيرة جرت خلال عشرات الآلاف من السنين (بجانب الوراثة)... حقا ان الجينات هي المكون الأساسي في قصة التطور المعرفي البشرى، لكنها ليست كل القصة".
كلمة أخيرة.. يعد الكتاب من الدراسات الهامة في مجال المعرفة البشرية، من حيث البحث عن جذورها وعناصر نموها ومكتسباتها. ومع ذلك فقد يلاحظ القارئ أن الدراسة لم تحسم القضية، بل أثارت من الأسئلة الكثير، بداية الدراسة تعتمد على الفرض الداروينى الذي يقول بأن الانسان وجد امتدادا لعائلة عليا من عشيرة القردة.. ومع تجاوز السؤال لعبثية البحث فيه ولعدم ارتباطه بالموضوع الجوهري "اللهم الا اذا اعتبرنا أن تلك العشيرة من القردة بفضل الطفرة الجينية والنقلة الثقافية باتت جذرا وأصلا لبنى البشر فيما بعد".. يثار السؤال الأهم.. اذا ما وضعنا كل تلك الأهمية للوراثة والجينات وقللنا من المكتسبات الاجتماعية والطبيعية على حد تعبير الكاتب.. لماذا تنمو المعارف والثقافات كما ونوعا بمعدلات في العقود الأخيرة تفوق مجمل ما كان سلفا، حتى أن البعض قال وأكد أن منجز البشر المعرفي خلال القرن العشرين وحده يفوق كل ما أنجزته البشرية طوال تاريخها الطويل السابق ومنذ أن اعتلى الانسان فروع الشجر وعرف النار؟؟ "مع اعتبار فكرة الجينات والوراثة عامل ثابت في المقارنة بين الزمن القديم والقرن العشرين"!!.